الفكر النقدي عند ابن قتيبة

اعداد
د/ فوزي عمر الحداد
كلية التربية - جامعة طبرق / ليبيا

Doi: 10.12816/mdad.2019.48354
الاستلام : ١٥/ ٥ /٢٠١٩ القبول : ١٨ / ٧ /٢٠١٩

المستخلص:

تتناول هذه الدراسة النتاج النقدي لأحد اعلام الفكر العربي في عصوره الزاهية، وهو عبدالله بن مسلم، المعروف بابن قتيبة، الذي حظي بإشادة كثير من الباحثين وذكروا عمق ثقافته وسعة معرفته في علوم العربية، كالسيوطي والقفطي وابن خلكان والسمعاني والبغدادي وأحمد أمين ومحمد مندور. وقد عاشَ ابن قتيبةَ في عصرٍ زاخرٍ اختلطت فيه الدراساتُ وشاع التأليف، وبرز علماء وأدباء منهم الجاحظ والمبردُ وغيرهم كثير، ولكن التأليف في هذا العصر ساده بعض الاضطراب، فطبعت المؤلفات بطابع الاستطراد والانتقال من فكرة إلى أخرى دون علاقة واضحة بينهما، فقد كان هذا هو الطابع العام للتأليف في ذلك العصر. لكن ابن قتيبة لما يمتلكه من ثقافة واسعة وفكر نيّر، جاء بأسلوب مختلف في التأليف، من حيث اعتنائه بالتنسيق والتنظيم بين فقرات البحث وفصوله، فاهتم بالتسلسل المنطقي بين الأفكار في موضوعاته، ولعل هذا يرجع إلى إلمامه بالقضايا والأساليب الجدلية، كما يتضح من خلال دراسة منهج ابن قتيبة النقدي، تلك الروح التي غلبت على آرائه متأثراً باشتغاله مدة طويلة بالقضاء، فكان يميل إلى الاعتدال في جل آرائه ومذاهبه. وجلي أنه مستاء من فوضى التأليف التي كانت سائدة عند معاصريه، لذا نجد اهتمامه بوحدة الموضوع وتنظيم البحث وتقسيمه إلى أبواب وتسلسل الأفكار واستقصاء الفكرة، كما كان من الذين جعلوا في مقدمة كتاباتهم عرضاً يوضح الغرض منها أو دافع تأليفها وهذه خطوة عظيمة في ميدان التأليف تحسب لابن قتيبة.

الكلمات المفاتيح : النقد القديم – ابن قتيبة- المنهج النقدي.

Abstract:

This study deals with the critical output of a media of Arab thought in its bright era, He is Abdullah bin Muslim, known as Ibn Qutaiba, who received the praise of many researchers and

mentioned the depth of his culture and his knowledge in Arabic sciences, such as Assiuti, Qufti, Ibn Khalkan, Samaani, Baghdadi, Ahmed Amin and Mohammed Mandour. Ibn Qutayba lived in a busy era where studies were mixed and authoring became common. The writings were printed in the nature of digression and move from one idea to another without a clear relationship between them, However, Ibn Qutaybah, because of his wide culture and thought, came in a different way in the composition, in terms of taking care of coordination and organization between research paragraphs and chapters, interested in the logical sequence of ideas in his subjects, Perhaps this is due to his familiarity with the controversial issues and methods, as evidenced by the study of Ibn Qutayba's critical approach, a spirit that prevailed over his views due to his prolonged judiciary. He was inclined to moderation in most of his views and doctrines. It is clear that he is upset by the chaos of authorship that was prevalent in his contemporaries, so we find his interest in the unity of the subject and the organization of research and division into sections The sequence of ideas and the investigation of the idea, as it was among those who made in the introduction of their writings show the purpose or motive to compose, and this is a great step in the field of authorship calculated for Ibn Qutaiba.

اختلفت آراء المؤرخين في مكان ولادة ابن قتيبة، فبعض منهم يقول إنه ولد في الكوفة، كابن النديم[١] وابن الأثير[٢]، وفريق آخر يقول إنه ولد ببغداد، كالبغدادي[٣] والسمعاني[٤] والقفطي[٥]، وهناك من يري الروايتين[٦]، وقد اختلفوا أيضاً في سنة ولادته،

[١] ابن النديم ،الفهرست، تحقيق: رضا تجدد بن زين العابدين ، دار المسيرة ، ط ٣، (القاهرة، ١٩٨٨) ص٧٧ .
[٢] ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، دار الفكر ، (بيروت، ١٩٧٨) جزء٧ ، ص ١٧٥.
[٣] البغدادي، تاريخ بغداد ، دار الكتب العلمية، (بيروت ،..) جزء ١٠، ص ١٧٠.
[٤] السمعانى، الأنساب ، تحقيق : عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، ط٢، بيروت،١٩٨٠ ص ٤٤٣.

لكن بعض المصادر أكدت أن سنة ولادته كانت في عام ٢١٣ هـ، الموافق ٨٢٨ م[٧].

أما اسمه فهو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، وكنيته أبو محمد، وقد ذكر نفسه بكنيته كثيراً في كتبه، وقد اشتهر بلقب الدينوري انتساباً إلى الدينور إحدى مدن الجبال من فارس، لأنه تولى قضاءها فترة طويلة أيام الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان، وابن قتيبة ينحدر أصله من أسرة فارسية كانت تسكن مدينة (مرو) ومما يؤكد هذا قوله محاجاً بعض الشعوبية:" فلا يمنعني نسبي في العجم أن أدفعها عما تدعيه لها جهلتها"[٨]. ويقال له أيضا البغدادي لمكوثه بها مدة طويلة، إذ وجد فيها عدداً كبيراً من العلماء في مختلف ألوان المعرفة، حريصاً على طلب العلم ، يقول في كتابه تأويل مختلف الحديث عن حياته في بغداد "وقد كنت في عنفوان الشباب وتطلب الآداب أحب أن أتعلق من كل علم بسبب وأن اضرب فيه بسهم"[٩].

وقد أشار إليه كثير من الباحثين وذكروا عمق ثقافته وسعة معرفته في علوم العربية، قال عنه السيوطي:" كان رأساً في العربية واللغة والأخبار وأيام الناس، ثقة ديِّناً فاضلاً "[١٠] ونوه به القفطي قائلاً:" هو صاحب التصانيف الحسان في فنون العلم"[١١] ومن مثل هذا قال ابن خلكان والسمعاني والبغدادي. وفي العصر الحديث وصفه أحمد أمين:" وعلي الجملة فثقافة ابن قتيبة واسعة كل السعة، ومظهر امتزاج الثقافات عنده جليّ وواضح ".[١٢]

ويبدو واضحاً علو منزلة ابن قتيبة وسعة اطلاعه وتنوع ثقافته، التي لم تقتصر على اللغة العربية وأدبها ولكنه تجاوزها إلي لغات الأمم الأخرى كاليونانية والفارسية، والحق أن ابن قتيبة لم يترك بحراً من بحور العلم يشبع رغباته إلا غاص فيه واستخرج دره. بل يحسب له الجمع بين المدرستين البصرية والكوفية، فقد اختار لنفسه مذهباً وسطاً يتناسب وعقليته المستقلة، دون أن يسير في ركب المقلدين، حتى عده كثير من

---

[٥] القفطي، إنباه الرواة، دار الفكر العربي ، ط١،القاهرة ، ١٩٨٦ ، ج ٢، ص ١٤٣ .

[٦] ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب ، دار الكتب العلمية (بيروت ، ..) ج ٢، ص ١٦٩ .

[٧] ابن كثير ، البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، ط ٢ ، (بيروت ١٩٩٠) ج١١ ، ص٨٤ ، وانظر أيضاً: وفيات الأعيان ، ابن خلكان، تحقيق : إحسان عباس ، دار الثقافة ، (بيروت ، ١٩٧٠) ج ٣ ، ص ٤٣ .

[٨] ابن قتيبة اللغوي ، عبدالجليل مغتاظ ، ط ١ ، (بيروت ، ١٩٨٨) ص ٢١ .

[٩] ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث ، ، ص ٦١ ، ينظر ابن قتيبة اللغوي ، ص٢٤ .

[١٠] السيوطي، بغية الوعاة ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ص٢٩١ .

[١١] القفطي، إنباه الرواة ، ج ٢، ص ١٤٣ .

[١٢] أحمد أمين، ضحى الإسلام ، ، دار الشباب ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ج١، ص ٤٠٦ .

العلماء إماماً لمدرسة بغداد التي جمعت بين آراء الكوفة والبصرة .[١٣]

وقد عاشَ ابن قتيبةَ في عصرٍ زاخرٍ اختلطت فيه الدراساتُ وشاع التأليف، وبرز علماء وأدباء منهم الجاحظ والمبرّد وغيرهم كثير، ولكن التأليف في هذا العصر ساده بعض الاضطراب، فطبعت المؤلفات بطابع الاستطراد والانتقال من فكرة إلى أخرى دون علاقة واضحة بينهما، فقد كان هذا هو الطابع العام للتأليف في ذلك العصر.

لكن ابن قتيبة لما يمتلكه من ثقافة واسعة وفكر نيّر، جاء بأسلوب مختلف في التأليف، من حيث اعتنائه بالتنسيق والتنظيم بين فقرات البحث وفصوله، فاهتم بالتسلسل المنطقي بين الأفكار في موضوعاته، ولعل هذا يرجع إلى إلمامه بالقضايا والأساليب الجدلية، ويبدو أنه قد استاء من فوضى التأليف التي كانت سائدة عند معاصريه، لذا نجد اهتمامه "بوحدة الموضوع وتنظيم البحث وتقسيمه إلى أبواب وتسلسل الأفكار واستقصاء الفكرة، وهذه خطوة عظيمة في ميدان التأليف تحسب لابن قتيبة"[١٤].

فقد أراد أن يخط لنفسه منهجاً متفرداً، لا يخضع فيه للمعايير والمقاييس الأدبية التي كانت سائدة في عصره ، وفي هذا يقول د. محمد مندور: "الواقع أن ابن قتيبة كان رجلاً مستقل الرأي غير خاضع لتقاليد العرب الأدبية، ولا مؤمن بأحكامهم ولا مطمئن إلى المعتقدات الأدبية التي كانت منتشرة في عصره"[١٥].

وكذلك كان من أوائل أولئك الذين جعلوا في مقدمة كتاباتهم عرضاً يوضح الغرض منها أو دافع تأليفها، قال في هذا نيكلسون:" إن كتب ابن قتيبة تعتبر من المؤلفات القيمة المنظمة التي تناولت موضوعات بذاتها ".[١٦] فمؤلفات ابن قتيبة على اختلاف مضامينها، وتنوع مواضيعها، أبرزت سعة الثقافة التي يتمتع بها، فبعض هذه الكتب تناولت العناية بغريب اللغة وبعضها الآخر اهتم بعلم النحو، كذلك من كتبه ما كان مخلصاً فيه للحديث وأصحابه، وبالطبع استأثر الشعر بجهدٍ واضح برز من خلال كتابته لخمسة كتب، كلها تدور حول الشعر، هي: المعاني الكبير- الشعر والشعراء - عيون الشعر - التقفية - المسير والقداح[١٧] بينما حظي الشعر بحصة كبيرة في كتبه الأخرى، من مثل كتب: العـــرب - عيون الأخبار- تأويل مشكل القرآن - الأنـــواء.

---

[١٣] دائرة المعارف الإسلامية ، النسخة العربية ، إعداد وتحرير: إبراهيم زكي خورشيد، أحمد الشناوي، عبدالحميد يونس، ص ٢٦٠

[١٤] محمد الجربي، ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية والنقدية ، ص٤٢ .

[١٥] محمد مندور ، النقد المنهجي عند العرب ، ص ٢٣ .

[١٦] نيكلسون ، تاريخ الأدب العربي ، ينظر ابن قتيبة ومقاييسه البلاغية والنقدية ، ص ٤٠.

[١٧] عبدالسلام عبدالحفيظ، نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العلوي ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص ١١٦.

من جهة أخرى، يجدر بنا أن نذكر أن ابن قتيبة تأثر كثيراً بمعاصره الجاحظ، فقد "نحا ابن قتيبة منحى الجاحظ في اتخاذ الشعر العربي مصدراً للمعرفة، فكتب كتاباً في "الأنواء" وآخر في "الأشربة" وثالثاً في "الخيل" ، ليثبت لأنصار الكتب المترجمة أن في الشعر العربي ما يضاهي حكم الفلاسفة وعلوم العلماء"[١٨]. فقد كان الجاحظ ممن أخذ عنهم ابن قتيبة ، يبدو هذا جلياً من خلال ما يصرح به ابن قتيبة نفسه عندما يقول في كتابه عيون الأخبار: "وفيما أجاز لنا عمرو بن بحر الجاحظ قال: ... " [١٩]

بل إن ابن قتيبة يتبنى بعضاً من آراء الجاحظ من مثل "رأيه في أن النادرة يجب أن تورد بلفظ أصحابها ولو كانت ملحونة، ورأيه في إباحة ذكر العورات في الكتب دون تحرج "[٢٠] إلى غير ذلك من الآراء.

وحريٌ بنا في هذا السياق، أن نذكر ما أورده الدكتور إحسان عباس، إذ ذكر أنه على الرغم من تأثر ابن قتيبة بالجاحظ إلا أنه يحمل بشدة عليه أحياناً لأنه ينتصر للشيء ولضده، ويصفه بأنه من "أكذب الأمة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لباطل" ولكن هجومه هذا مقصور على الناحية المذهبية دون سواها[٢١]. وقد تكون روح القضاء الذي تولاه حيناً من الزمن، سبباً في نظرته المعتدلة هذه بين الأخذ والترك والانتقاد لمعلمه السابق الجاحظ.

كذلك نهج ابن قتيبة في مؤلفاته، نهجاً يتمثل في محاولة استقطاب ذوي الأصول غير العربية، وخصوصاً ذوي الأصول الفارسية، فعندما اهتم بطبقة الكُتّاب أصحاب الميول الشعوبية، اشتغل بتأليف كتب تقربهم من التراث العربي، وتصرفهم عن الكتب الفارسية الخالصة من مثل كتب: أدب الكاتب، المعارف، وعيون الأخبار الذي يقول فيه:" إني تكلفت لمغفل التأدب من الكتاب كتاباً في المعرفة وفي تقويم اللسان واليد حين تبينت شمول النقص ودروس العلم وشغل السلطان عن إقامة سوق الأدب حتى عفا ودرس"[٢٢].

وفي اتجاه آخر، نرى ابن قتيبة يحمل بجدٍ على مذهب الفلاسفة في النظرة إلى اللغة، وإقحام المنطق الشكلي في دراستها وتذوقها، وهو بذا يحاول أن يبعد هذا التيار الجديد عن عقول الشباب، فهو يعتقد أنّ من شأنه أن يصرفهم عن النظر في كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم)، يقول في مقدمة كتابه أدب الكاتب: "ولو أن هذا المعجب بنفسه الزاري على الإسلام برأيه نظر من جهة النظر لأحياه الله بنور الهدى

---

[١٨] إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ، ١٩٩٣ ، ص ١٠٥ .

[١٩] عيون الأخبار ، ج ٣ ، ص ١١٩ ، ٢١٦ ، ٢٤٩ .

[٢٠] إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي ، ، ص ١٠٦ .

[٢١] المصدر نفسه ، ص ١٠٦ .

[٢٢] عيون الأخبار ، ج١ ، ص ٤٢ .

وثلج اليقين. ولكنه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب وفي أخبار الرسول (صلى الله عليه وسلم) وصحابته ، وفي علوم العرب ولغاتها وآدابها ، فنصَبَ لذلك وعاداه. وانحرف عنه إلى علم قد سلمه ولأمثاله المسلمون، وقل فيه المتناظرون، ترجمة تروق بلا معنى، واسم يهول بلا جسم. فإذا سمع الغمر والحدث الغر قوله: الكون والفساد ، وسمع الكيان والأسماء المفردة الكيفية والكمية ، والزمان والدليل ، والأخبار المؤلفة، راعه ما سمع، وظن أن تحت هذه الألقاب كل فائدة وكل لطيفة ، فإذا طالعها لم يحل منها بطائل ، إنما هو الجوهر يقوم بنفسه ، والعَرَض لا يقوم بنفسه ، ورأس الخط النقطة، والنقطة لا تنقسم ، والكلام أربعة: أمر وخبر واستخبار ورغبة ، ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب، وواحد يدخله الصدق والكذب، وهو الخبر، والآنُ حد الزمانين، مع هذيان كثير، والخبر ينقسم إلى تسعة آلاف، وكذا كذا مائة من الوجوه، فإذا أراد المتكلم أن يستعمل بعض تلك الوجوه في كلامه كانت وبالاً على لفظه وقيداً للسانه وعياً في المحافل ، وعُقلة عند المتناظرين[٢٣]".

ومن الآثار البينة في منهج ابن قتيبة النقدي، تلك الروح التي غلبت على آرائه متأثراً باشتغاله مدة طويلة بالقضاء، فكان يميل إلى الاعتدال في جل آرائه ومذاهبه، يقول في هذا الدكتور محمد زغلول سلام: "وأثرت ثقافة ابن قتيبة المتنوعة ، وبيئته في بغداد واشتغاله بالقضاء ، وتعمقه أصول الفقه في تأليفه ، وظهرت روح القضاء الذي تولاه حيناً في كتبه ، فكان من شواهدها اعتداله في مذهبه النحوي بين أهل البصرة والكوفة ، واعتداله كذلك في مذهبه الديني بين المعتزلة والمتكلمين وأهل السنة فحاول التوسط بين الاتجاهين المتعارضين في عصره ، مذهب القدماء ومذهب المحدثين"[٢٤].

ومن خلال النظر في مجمل مؤلفاته يمكن استخلاص الفوائد الآتية للشعر عنده:

١. **الفائدة العلمية**:

وتتمثل في حفظه لعلوم العرب في الإنسان والحيوان ، والأنواء والرياح والبروق والسحاب وغيرها.

٢. **الفائدة التاريخية** :

وذلك باعتبار أن الشعر سجل لأحداث الحياة وتراث الماضي، فهو ديوان الأخبار ومستودع الأيام ، وهو السور المضروب على المآثر، والخناق المحجوز على المفاخر، وحافظ للأنساب ومجدد للعلاقات والصلات.

٣. **الفائدة الأخلاقية** :

وتتمثل في أمرين **أولهما**: حفظ المآثر الكريمة ، والمفاخر الحميدة ، والخصال المستحبة لأصحابها خالدة على الدهر، لأن رواية الشعر تذكر الناس بهؤلاء الأماجد،

[٢٣] ابن قتيبة، مقدمة أدب الكاتب ، ص ١٠٧ .

[٢٤] محمد زغلول سلام، تاريخ النقد الأدبي والبلاغة ، ص ١٣٢ .

وتخلد ذكرهم على مرور الزمن. **وثانيهما :** يخص الناس والأجيال القادمة في الحث على الخلق ، أو ترسم الصور المثالية للمجد والعلا عن طريق حث البخيل على السماح، والجبان على اللقاء، والدني على السموّ، من مثل ذكره قول أبي تمام:

وإن العلا ما لم تر الشعر بينها لكالأرض غفلاً ليس فيها معالم
وما هو إلا القول يسري فيغتدي له غرر في أوجهٍ ومواسم
ولولا خلال سنها الشعر ما درى بغاة العلا من أين تؤتى المكارم"[٢٥]

ومنه أيضاً تصوير حياة الشاعر إذ يحاول أن يستنبط بعضاً من أخبار الشاعر أو مواقفه من خلال شعره، فعلى سبيل المثال يقول عن زهير بن أبي سلمى:" كان يتأله ويتعفف في شعره ويدل شعره على إيمانه بالبعث وذلك قوله:

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم [٢٦]

وفي مثال أخر، نراه يصور ما يعتري حياة الشاعر من حوادث ، وما في جسمه من علل وما في عقله من فكر، يقول: عمى أبو يعقوب الخريمي بعد ما أسن وكان يقول في ذلك:

فإن تك عيني خبا نورها فكم قبلها نور عين خبا [٢٧]

وقد ذكر كثير من مثل هذه الأمثلة، منها ما وضعه تحت عنوان: (مما يتمثل به من شعر الشاعر) وذكر أشعاراً لامرئ القيس[٢٨]، وزهير ابن أبي سُلمى [٢٩]، والنابغة الذبياني[٣٠] ، والمتلمس[٣١]، وغيرهم. إضافة إلى تأثره الجمالي بالكلمة الجيدة والصياغة الجميلة والتصوير الأخاذ، فقد كان أفضل الشعر عند ابن قتيبة هو الذي حسن لفظه وجاد معناه [٣٢].

وإذا ما نظرنا إلى مجمل تآليف ابن قتيبة، نستطيع القول إن أغلبها مستمد من القرآن والحديث والشعر وأخبار الناس، وبقية كتبه استمد مادته من فكره النير وسعة أفقه، وفي هذا الجزء من كتبه ظهرت بقوة شخصيته الفذة ، وظهر جلياً اعتزازه برأيه الخاص، وهذا واضح من خلال كتابه تأويل مختلف الحديث.

كما أن أسلوبه المتميز وصياغته الفريدة، أظهرت بوضوح شخصيته النقدية في عديد كتبه وخاصة في كتابه: **الشعر والشعراء.** وهو ما سنفرد له حديثنا فيما يلي.

---

[٢٥] عيون الأخبار ، ج ٢ ص ١٨٣ .
[٢٦] الشعر والشعراء ، ج ١ ص ١٣٩ .
[٢٧] نفسه ، ج ١ ص ٨٥٣ .
[٢٨] نفسه ، ج ١ ص ١١٨ .
[٢٩] نفسه ، ج ١ ص ١٤٦ .
[٣٠] نفسه ، ج ١ ص ٦٨ .
[٣١] نفسه ،ج ١ ص١٩٣
[٣٢] ينظر: ابن قتيبة اللغوي ، عبد الجليل مغتاظ ، ص ٥٩ .

كتاب: الشعر والشعراء

ذكره ابن النديم[٣٣] بهذا الاسم، وابن خلكان[٣٤] والداودي[٣٥] والقفطي[٣٦] وابن العماد الحنبلي[٣٧] بينما ذكره السيوطي[٣٨] باسم (طبقات الشعراء)، ورواه أيضاً ابن خير الأشبيلي[٣٩] وحاجي خليفة[٤٠] بهذا الاسم، وكذلك ذكره بهذا الاسم الرافعي[٤١] في تاريخه الأدبي. ويبدأ ابن قتيبة كتابه - كعادته في كتبه- موضحاً الغاية من تأليف الكتاب يقول:" هذا كتاب ألفته في الشعراء أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم في أشعارهم وقبائلهم وأسماء آبائهم، ومن كان يعرف باللقب أو بالكنية منهم، وعما يستحسن من أخبار الرجل يستجاد من شعره، وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ في ألفاظهم أو معانيهم، وما سبق إليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون، وأخبرت فيه عن أقسام الشعر وطبقاته، وعن الوجوه التي يختار الشعر عليها ويستحسن لها إلى غير ذلك مما قدمته في هذا الجزء الأول"[٤٢].

وقد أوضح ابن قتيبة منهجه في اختيار الشعراء الذين ترجم لهم، فهل ذكر جميع الشعراء المعروفين في عصره؟

أقر ابن قتيبة أنه لم يذكر كل من قال الشعر، إنما اقتصر على الشعراء المجيدين المشهورين والذين تظهر أسماؤهم في كتب الاحتجاج فقال:" وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو ، وفي كتاب الله عز وجل ، وحديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم). فأما من خفي اسمه ، وقل ذكره ، وكسد شعره ، وكان لا يعرفه إلا بعض الخواص فما أقل من ذكرت من هذه الطبقة ، وإذ كنت لا أعرف منهم إلا القليل ، ولا أعرف لذلك القليل أيضاً أخبارا ، وإذا كنت أعلم أنه لا حاجة بك إلى أن أسمي لك أسماء

---

[٣٣] الفهرست ، ص ١١٦ .
[٣٤] وفيات الأعيان، ج ٣ ص٤٢ .
[٣٥] طبقات المسفرين ، تحقيق : على محمد عمر ، مطبعة الاستقلال الكبرى ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ج٢ /٤٢٦ .
[٣٦] إنباه الرواة ، ج ٢ ص١٤٥ .
[٣٧] شذارت الذهب ، ج٢ ص١٦٩ .
[٣٨] بغية الوعاة ، ج ٢ ص٦٤ .
[٣٩] فهرسة ابن خير ، ص ٣٧٨ ، ينظر ابن قتيبة اللغوي ، ص ٧٦ .
[٤٠] كشف الظنون ، دار الفكر للطباعة والنشر ، ١٩٩٤ ، ص ١٢٥
[٤١] تاريخ آداب العرب ، مصطفي صادق الرافعي ، ج ٣ ص٣٤٢ .
[٤٢] الشعر والشعراء ، ص ٧ .

لا أدل عليها بخبر أو زمان ، أو نسب أو نادرة ، أو بيت يستجاد أو يستغرب."[٤٣]

وأضاف ابن قتيبة أنه نحا منحى آخر في ترجمته للشعراء، فقد ذكر أنه لم يترجم لكل شعراء الجاهلية والإسلام ، لأن عددهم أكثر من أن يحيط بهم محيط، قال في هذا:" ولعلك تظن أنه يجب على من ألف مثل كتابنا هذا ألا يدع شاعراً قديماً ولا حديثاً إلا ذكره ودلك عليه، وتقدر أن يكون الشعراء بمنزلة رواة الحديث والأخبار والملوك والأشراف الذين يبلغهم الإحصاء ويجمعهم العدد. والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو أنفد عمره في التنقير عنهم، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال ، ولا أحسب أحدا من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ، ولا قصيدة إلا رواها." [٤٤]

وأضاف ابن قتيبة أنه ذكر في كتابه من كان غلب عليه الشعر ، أي من كان معروفًا بقول الشعر في زمانه ، لذلك رأيناه يهمل ذكر كثير ممن قل شعره وإن جاد، ولو ذكر أولئك لأصبح كتابه أضعاف ما عليه اليوم ، قال:" ولم أعرض في كتابي هذا لمن كان غلب عليه غير الشعر، فقد رأينا بعض من ألف في هذا الفن كتاباً يذكر في الشعراء من لا يعرف بالشعر ولم يقل منه إلا الشذ اليسير، كابن شبرمة القاضي، وسليمان بن قتيبة التيمي المحدث ، ولو قصدنا لذكر مثل هؤلاء في الشعر لذكرنا أكثر الناس ، لأنه قلَّ أحد له أدنى مسكة من أدب ، وله أدنى حظٍ من طبع ، إلا وقد قال من الشعر شيئاً ، و لاحتجنا أن نذكر صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وجل التابعين ، وقوماً كثيراً من حملة العلم ومن الخلفاء والأشراف ونجعلهم في طبقة الشعراء. "[٤٥]

والشعر والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام "أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو أنفد عمره في التنفير عنهم ، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال، ولا أحسب أحد من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ، ولا قصيدة إلا رواها".[٤٦]

ثم ينتقل ابن قتيبة فيسلك مسلكاً مهماً في منهجه النقدي ، ألا وهو حديثه عن موقفه من الشعر القديم والحديث ، فهو لم ينظر – عند ترجمته للشعراء – إلى المتقدم منهم بعين الجلال والتنظيم لتقدمة ، ولا إلى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره، بل أخذ بعين العدل وأعطى كلا حقه، وفى هذا يقول : فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائلة ، و يضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده

---

[٤٣] نفسه ، ص ٨ .
[٤٤] الشعر والشعراء ، ص ١٠ .
[٤٥] نفسه ، ص ١٠.
[٤٦] نفسه ، ص ١١ .

إلا أنه قيل في زمانه أو أنه رأى قائله[٤٧].

فابن قتيبة رأى أن الشعر وحده هو مقياس تقدم الشاعر وتميزه ، دون اعتبار لتقدمه أو تأخره في الزمن ، لأن الشعر والبلاغة عنده لم تقتصر على عصر دون غيره ، أو على قوم دون سواهم ، لكن ذلك مشترك ومقسم بين عباد الله ، وأن كل شعر أو أدب هو حديث في عصره ، ثم يصبح حين يمضي الزمن قديماً : "ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديث في عصره وكل شرفٍ خارجيةً في أوله. فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين ، وكان أبو عمرو ابن العلاء يقول : لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته . ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم ، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا ، كالخريمي والعتابي والحسن بن هانئ وأشباههم ، فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا عليه، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ، أو حداثة سنه. كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه"[٤٨].

وعن هذه النظرة قال الدكتور محمد زغلول سلام: "وتلك نظرة قاضٍ يضع العدل موضع الحكم، ولا يفرق بين الناس إلا وفق ما يقدمون من العمل، فالتقَّديم للمحسن والتأخير للمسيء، ولا شيء سوى ذلك مما يتصل بشكل القائل ومكانته، وهى نظرة مثالية من وجهة نظر النقد لو أحسن تطبيقها، ووافت طبيعة الشعر العربي الناقد في تنفيذها"[٤٩].

وهذه الروح على أية حال روح جديدة مخالفة في مظهرها لروح ابن سلام في كتابه الطبقات ، فطبقاته قائمة على نظام تفاضلي ، يقسم الشعراء طبقات حسب السبق والجودة ولها عللها ومقوماتها، أما ابن قتيبة فينظر للشعراء وأشعارهم نظرة أخرى مغايرة ، فيعنى بالمشهورين منهم خاصة ، وعيار الشهرة عنده دوران أشعارهم على ألسنة الخاصة من العلماء ، والاستشهاد بها في علوم اللغة والنحو ، وتفسير كتاب الله ، وحديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أي النظر للشعر من حيث موافقته لمعايير الفصاحة ، وسلامة التركيب ، ودقة المعاني والأصالة ، لأن هذه الخصائص جميعا هي ما ينبغي توفرها في كل ما يستشهد به في الأحوال التي ذكرها.[٥٠]

إضافة إلى ذلك ذكر ابن قتيبة أنه أودع كتبه كثيراً من الأخبار عن أهمية الشعر وجلالة قدره ، وعظيم خطره ، وأشار إلى من رفعه الله بالمديح وعمن وضعه بالهجاء

---

[٤٧] نفسه ، ص ١٢.

[٤٨] الشعر والشعراء، ص ١٢.

[٤٩] محمد زغلول سلام ، تاريخ النقد الأدبي والبلاغة ، ، ص ١٣٤ .

[٥٠] ينظر: نفسه ص ١٣٥.

وذكر أموراً كثيرة أخرى، غير أنه يودع بعض هذه الأخبار في كتابه الشعر والشعراء معللاً ذلك بأنه سبق وذكر هذه الأخبار في كتبه الأخرى فخشي الإطالة بإعادتها ، يقول في هذا:" وكان حق هذا الكتاب أن أودعه الأخبار عن جلالة قدر الشعر وعظيم خطره ، وعمن رفعه الله بالمديح وعمن وضعه بالهجاء، وعما أودعته العرب من الأخبار النافعة والأنساب الصحاح والحكم المضارعة لحكم الفلاسفة ، والعلوم في الخيل ، النجوم وأنوائها الاهتداء بها ، والرياح وما كان منها مبشراً أو جائلا ، والبرق وما كان منها خلبا أو صادقا ، السحاب وما كان منها جهاما أو ماطرا ، وعما يبعث منه البخيل على السماح والجبان على اللقاء والدنيء على السمو. غير إني رأيت ما ذكرت من ذلك في كتاب العرب كثيراً كافيا ، فكرهت الإطالة بإعادته ، فمن أحب أن يعرف ذلك ليستدل به على حلو الشعر ومره نظر في ذلك الكتاب "[٥١]

وأشار الدكتور محمد مندور إلى أن قول ابن قتيبة في مقدمته:" وهذا كتاب ألفته في الشعراء ، وأخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم ...إلخ" يفهم منه أن ابن قتيبة استطاع أن يجمع بين مسألتين هما : التاريخ والنقد ، ولكن الدكتور مندور رأى أن ابن قتيبة عرض لبعض المسائل العامة دون أن يضع لها مبادئ فقال:" وهذا كلام قد يفيد أن المؤلف قد جمع بين التاريخ والنقد ولكن الواقع بخلاف ذلك ، فابن قتيبة لم يتناول النصوص بنقد فني تطبيقي ، وإنما اكتفى بأن عرض في مقدمته لبعض المسائل العامة دون أن يحاول وضع مبادئ لها، ثم أخذ في سرد سير الشعراء وبعض أشعارهم على غير منهج واضح ولا مبدإ في التأليف." [٥٢]

وتحدث د. مندور عن الفرق بين منهجي ابن سلام وابن قتيبة، وبخاصة في موضوع الطبقات، وهذا يوضح أن ابن قتيبة كان مستقل الرأي وغير خاضع لكثير من التقاليد الأدبية فيذكر مندور أن ابن قتيبة كان رجلاً مستقل الرأي غير خاضع لتقاليد العرب الأدبية ولا مؤمن بأحكامهم ولا مطمئن إلى المعتقدات الأدبية التي كانت منتشرة في عصره ، ولكنه لسوء الحظ لم يعد تقرير هذه النزعة والخروج على المألوف دون أن يحل محله غيره، فهو لا يأخذ بفكر الطبقات كما أخذ ابن سلام، وهذا واضح منذ الصفحات الأولى من كتابه، فهو إذ بدأ بامرئ القيس فإنه قد ثلث بكعب ابن زهير ولم يقل أحد أن كعباً من الطبقة الأولى ولا قدمه أحد على النابغة والأعشى اللذين يوردهما بعد ذلك بكثير، والذي يبدو لنا أن ابن قتيبة لم يأخذ بتقسيمات ابن سلام لأنه لم يؤمن بمقايسة كمبدإ الكم مثلا فهو يقول:" ولا أحسب أحداً من أهل التمييز والنظر، نظر بعين العدل وترك طريف التقليد، يستطيع أن يقدم أحداً من المتقدمين المكثرين على أحد إلا

[٥١] الشعر والشعراء ص١١

[٥٢] محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب ، ص ٢٢ .

بأن يرى الجيد في شعره أكثر من الجيد في شعر غيره . وهذا تفكير سليم ونظر صائب [٥٣]

أما المادة التي تضمنها كتاب الشعر والشعراء في جزئه الأول فقد جاءت على النحو الآتي:

١- أقسام الشعر أو أضربه.
٢- الوجوه التي يختار الشعر عليها.
٣- التكلف والصنعة والطبع في الشعر وعند الشعراء ووسائل استدعاء الشعر أو اسماحه أو تأبيه.
٤- نظام القصيدة وما يلزم اتباعه منها، وتفسير لخطوط القصيدة، وقصيدة المدح خاصة.
٥- موفقه من القديم والحديث والحسن والقبيح.
٦- بيان لعيوب القافية وما ليجوز في لغة الشعر [٥٤].

أما الجزء الثاني من الكتاب، فقد تضمن ترجمة للشعراء الذين اختارهم ابن قتيبة وكان عددهم ستة ومئين من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والأمويين والعباسيين، ويبدو جليا أنه لم يأخذ بفكرتي الزمان أو المكان لأنه وكما يذكر الدكتور محمد مندور:" إن كان ابتدأ بالجاهليين لينتهي بالإسلاميين فإنه لم يرتبهم في كل عهد وفقاً لما كان معروفاً عند العرب - إن حقاً وإن باطلاً في ذلك الوقت - عن أسبقية بعضهم لبعض ولو فعل لابتدأ بالمهلهل الذي يقول عنه ابن سلام" إنه أول من قصد القصائد وذكر الوقائع" [٥٥]

أما فيما يخص النقد فإن ابن قتيبة لم يهتم به كثيراً في هذا الجزء وانصب اهتمامه على الترجمة للشعراء فكان نقده قليلاً متناثراً.

وقد رتب الدكتور عبد السلام عبد الحفيظ منهج ابن قتيبة في هذا الجزء على هذا النحو:

١. ما استجيد أو استحسن أو رآه هو جيداً من شعر الشاعر وابن قتيبة لا يذكر سوى الشعر فلا يبين أسباب الجودة ولا مظاهر الحسن ، وهو أقرب إلى التأثريين منه إلى الموضوعيين.
٢. ما أخذه النقاد العلماء على الشاعر من الخطأ ، أو ما أخذه هو أيضاً، وهنا يبين أسباب المؤاخذة ويبدو موضوعيا، يصدر حكمه وحيثيات حكمه، ولا يقف موقفا سلبيا دائما من آراء العلماء في شعر الشاعر، بل أحيانا يناقضهم ويبين خطأ فكرتهم

[٥٣] نفسه ، ص ٢٣ .
[٥٤] ينظر : عبد السلام عبد الحفيظ ، الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا، ص ١١٥ .
[٥٥] النقد المنهجي عند العرب ، ص ٢٦ .

ويصحح شعر الشاعر، وأحيانا يوافقهم ، ولذا فقد رأيت أن جميع ما ورد من مآخذ في الكتاب على الشعراء معبر عن رأيه لأنه إما مقتنع به يوافقه أو غير مقتنع فيخالفه.

٣. ما سبق إليه الشاعر وأخذ عنه أو سبق إليه ولم ينازع فيه ، وهنا لا يحد السابق أو الآخذ بزمن ، ويتردد في الحكم بين الآخذ والسابق إذا تعاصر الشاعران.

٤. ما يتمثل به من شعر الشاعر ، ولا يذكر مواقف تمثل بها أحد بشعر إلا مرة واحدة.

٥. وهذا هو الجانب الذي يتصل بالترجمة، وفيه يستشف ابن قتيبة شيئا من حياة الشاعر: ثقافته أو عقيدته أو قبيلته أو جنسه من الشعر وحده.

٦. وقليلا ما يفسر شيئا من الشعر، وإذا هو فعل فإنما يفعل ذلك في مواطن خاصة: مثل أن يعارض رأيا سبقه لا يقتنع به ، أو يشرح فكرة غامضة جاء غموضها من إشارتها البعيدة أو ليدل على ثقافة الشاعر من خلال شرحه ونادرا ما يفسر لفظا غريبا" [٥٦].

وينبغي على دارس كتاب ابن قتيبة ألا يكتفي بما يقوله في موضع واحد، إنما عليه إن يلاحظ هذه المسألة في صفحات أخرى من كتابه أي لا يصح أن يعتمد على المقدمة أو الآراء التي ذكرها في الجزء الأول، دون نظر لما أورد من أحاديث خلال كلامه عن الشعراء ، إنما يلزمه أن يبسط ناظريه خلال الكتاب كله، وألا يقف عند مآخذه وحدها ، بل يلزمه أن يضع في حسبانه آراء العلماء الذين نقل عنهم مؤيداً أو معارضاً ، بل لا يصح لباحث أن ينظر إلى ابن قتيبة من خلال الشعر والشعراء وحده بل يلزمه أن يتسع فكره لبقية كتبه الشعرية.

وأخيرا يجدر بنا أن نذكر عن ابن قتيبة أنه خلال كتابه الشعر والشعراء يعد أول كاتب عربي يضع كتابا في تاريخ الأدب يخضعه للمنهج المدرسي في التأليف، فابن قتيبة يعد أول من سن هذا المنهج، إن لم يكن في كل الآداب العالمية فعلى الأقل في الأدب العربي، فإن إخضاعه كتابه للمراحل التاريخية المتسلسلة والفاصلة والكبرى واضح كل الوضوح.

فهو قد قسم التاريخ الأدبي عند العرب ضمنا وليس تصريحا إلى المرحلة الجاهلية والمرحلة الإسلامية بما فيها مرحلة الشعراء المخضرمين والمرحلة العباسية حيث كان يقف به الزمن.

هذا التقسيم – مالم يظهر كتاب آخر صدر قبل عصر ابن قتيبة - تقسيم مبتكر يعود الفضل إليه في ابتكاره واكتشافه.

ونقول إجمالا إن مؤلفات ابن قتيبة تدل وبوضوح عظمة مؤلفها وطول باعه وسعة

[٥٦] عبدالسلام عبدالحفيظ، نقد الشعر ، ص ١١٥/١١٦.

ثقافتـه، ولـذلك ذاع صـيتها فـي الآفـاق، وتنـافس الأدبـاء والعلمـاء والدراسـين لاقتنائهـا والاستفادة منها، فقد بلغت هذه المؤلفات مكانة مرموقة وحظيت من التقدير الشيء الكثير حتى شاع فيها على ألسنة العلماء قولهم :" كل بيت ليس فيه من تصنيف ابن قتيبة شيء لا خير فيه"[٥٧].

[٥٧] نفسه ص ١٥٤.

المصادر والمراجع

- ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، دار الفكر ، (بيروت، ١٩٧٨) .
- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، دار الكتب العلمية ، بيروت، د، ت.
- ابن النديم، الفهرست، تحقيق: رضا تجدد بن زين العابدين ، دار المسيرة ، ط ٣، (القاهرة، ١٩٨٨).
- ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت، ١٩٧٠.
- ابن قتيبة، أدب الكاتب، تحقيق: علي محمد زينو، مؤسسة الرسالة .
- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، الدار العربية للكتاب ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٩٨٣.
- ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، تحقيق: سليم الأثري، دار بن عفان، ط ٢، ٢٠٠٩.
- ابن قتيبة، عيون الأخبار، شرح وتعليق: د . يوسف علي طويل ، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٧٩ .
- ابن كثير ، البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، ط ٢ ، (بيروت ١٩٩٠) .
- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ١٩٩٣ .
- أحمد أمين، ضحى الإسلام ، دار الشباب ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
- جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت١٩٦٤.
- جلال الدين السيوطي، طبقات المفسرين، تحقيق: على محمد عمر، مطبعة الاستقلال الكبرى، ط١ القاهرة ، ١٩٧٢.
- حاجي خليفة، كشف الظنون ، دار الفكر للطباعة والنشر ، ١٩٩٤.
- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، (بيروت ،..).
- عبد الكريم بن محمد السمعاني، الأنساب ، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، ط٢، بيروت، ١٩٨٠.
- عبدالجليل مغتاظ ، ابن قتيبة اللغوي ، منشورات جامعة سبها ، ١٩٨٨ .
- عبدالسلام عبدالحفيظ، نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العلوي ، القاهرة ، ١٩٨٧.
- القفطي، إنباه الرواة، دار الفكر العربي ، ط١، القاهرة ، ١٩٨٦ .
- محمد رمضان الجربي، ابن قتيبة ومقاييسه الأدبية والنقدية والبلاغية، طرابلس ليبيا، ١٩٨٤.

- محمد زغلول سلام، تاريخ النقد الأدبي والبلاغة، منشأة المعارف ، القاهرة ١٩٨٢.
- محمد مندور ، النقد المنهجي عند العرب، نهضة مصر، القاهرة ١٩٩٦.
- مصطفي صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب ، مكتبة الايمان، االقاهرة ١٩٩٧.
- موجز دائرة المعارف الإسلامية، إعداد وتحرير: إبراهيم زكي خورشيد وآخرون، مركز الشارقة للإبداع الفكري ١٩٩٨.